الصراع المرابطي الأراغوني أيام علي بن يوسف (500-537هـ)

الدكتور: عبد العزيز شاكي
جامعة محمد بوضياف- المسيلة

الملخص:

تكفلت دولة المرابطين بمهمة الدفاع عن مسلمي الأندلس حيث تصدت لحملات الممالك النصرانية ومن بين تلك الممالك مملكة أراغون التي تولي أمير المرابطين علي بن يوسف مهمة جهادها وقد بدا الصراع المرابطي الأراغوني في عهد الأمير علي بن يوسف سنة 503 هـ / 1110 م إلى أن سقطت مدينة سرقسطة في يد النصارى سنة 512 هـ / 1118 م وهو ما فتح الشهية أمام القائد الفونسو المحارب لخوض حملة عسكرية اخترقت أراضي الأندلس لكنها لم تحقق أهدافها في النهاية انتصرت مملكة أراغون على دولة المرابطين في معركة القلاعة سنة 523 هـ / 1129 م واقتربت قوات النصارى من مدينة بلنسية دون مهاجمتها.

وقعت معركة إفراغة سنة 528 هـ / 1134 م التي انتصر فيها المرابطون على مملكة أراغون بقيادة الفونسو المحارب والذي فر من المعركة وتوفي بعدها بوقت قليل حزنا على انهزامه في هذه المعركة .

Résumé :

L'Etat d'Almoravides a pris en charge la défense des musulmans de l'Andalousie. En effet, il a repoussé les campagnes du royaume chrétiennes, y compris celui d'Aragon dont s'était occupé l'émir Moravide Ali Ben Yousef. Le conflit avait commencé à l'ère de Ali Ben Yousef en 503 de l'hégire correspondant à 1110 j.c. jusqu'à la chute de Saragosse entre les mains des chrétiens en 512

de l'hégire correspondant à 1118 j.c. Cela a vraiment encouragé le leader Alphonse le Batailleur pour lancer une campagne militaire qui a percé les landes andalouses mais elle n'a pas atteint ses objectifs. Le royaume d'Aragon a vaincu l'Etat d'Almoravides à la bataille de Cullera en 523 de l'hégire correspondant à 1129 j.c. et les forces chrétiennes se sont approchées de la cité de Valencia sans l'avoir attaquée, la bataille de Fraga a eu lieu en 528 de l'hégire correspondant à 1134 j.c et a été conclue par la victoire moravide contre l'Etat d'Aragon commandé par Alphonse le Batailleur qui s'en est enfuit. Il est mort plu tard de l'effet de sa défaite

مقدمة :

شكلت دولة المرابطين سداً منيعا في وجه تهديدات الممالك النصرانية في الأندلس وبذلك ساهمت في فرملة حركة الاسترداد المسيحي ، وقد ازدادت جذوة الجهاد توهجاً أيام أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (حكم من 500 إلى 537 هـ / 1106 – 1143 م) الذي اخذ على عاتقه مقارعة القوى النصرانية التي كانت لها اليد الطولى على كثير من الحواضر الأندلسية مُهلكةً الحرث والنسل، ومن بين تلك الممالك مملكة أراغون التي دخلت في حرب مع دولة المرابطين أيام علي بن يوسف فيا ترى ما هي أهم محطات هذا الصراع ؟

1– سقوط سرقسطة في يد النصارى 512هـ/1118م :

لم تكن مملكة أراغون[1] أفضل من غيرها حالا في صراعها مع المرابطين، فقد كان شأنها شأن سابقتها مملكة قشتالة، حيث كان الصدام العسكري حاضرا باستمرار، ودارت أول معركة بين دولة المرابطين وبين مملكة أراغون في عهد علي بن يوسف سنة 503 هـ / 1110 م، حيث على إثرها توفي ملك سرقسطة، وهو المستعين

بن هود[2]، وينقل لنا ابن عذاري من أخبار المستعين بن هود صاحب سرقسطة حيث يقول: « نزل المستعين أحمد بن هود إلى مدينة سرقسطة، وجدد البيعة عن أهلها لنفسه ولابنه ... وعزم على الغزو على بلاد الروم المجاورين له، فجمع وحشد وسار في جيش ... فاجتاز بمدينة تطيلة، ودخل منها على أرنبة فغلب بها على أراضيها واعتصم أهلها منه بكنيسة منيعة، ثم صالحهم على مال يؤدونه إليه أخذ به رهائن منهم، ثم انصرف قافلا عنهم، وشن في صدره الغارات على من بذلك الصقع من الروم، وهدم وحرق وقتل وسبى وعاد إلى بلاده، فلما شارف بلاد الإسلام لحقته خيل الروم، وصبر الفريقان وطال الضرب، واستشهد المستعين بن هود »[3]، ولما خلفه ابنه خاف على سلطانه من المرابطين فاستنجد بملك أراغون [4]، وبهذا التحالف أقدم المرابطون على الاستيلاء على سرقسطة وخلع ملكها [5]، وكان سكان سرقسطة قد كتبوا إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يدعونه لامتلاك بلادهم بعد أن ارتمى عماد الدولة في أحضان النصارى، فزحفت الجيوش المرابطية إلى سرقسطة فتضرع لهم عماد الدولة بإبقائه في منصبه ولكن لم يكن له ذلك وعزل ودخلت سرقسطة تحت نفوذ المرابطين.[6]

أورد صاحب الحلل الموشية نص الكتاب الذي بعث به صاحب سرقسطة عماد الدولة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين حيث يقول: « وقد كان المستعين بالله خاطب أباك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين -رحمه الله تعالى- يسأله الدعة ويرغب في الهدو[7]، والاستعانة على العدو ... ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا إليكم، فيتحكم فينا الإذلال، ويتمكن من محالنا الاستنقاص بالحقوق والاختلال، ولم تتقدم منا إليكم إساءة ... بل نفيض عليكم استمالتنا ونستعطفكم في كل حال بمقالنا [8] وسيعلم مبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبته »[9]، لما وصل كتاب صاحب سرقسطة إلى علي بن يوسف ووقف عليه، خاطب الأمير أبا بكر بن

تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده ، فوافاه الكتاب ولكن متأخرا بعد أن أدخلته الرعية مدينة سرقسطة[10].

أما ابن سعيد المغربي صاحب المغرب في حلى المغرب فينقل لنا تفاصيل انضواء سرقسطة تحت لواء المرابطين بقوله: « ولما ولي علي بن يوسف إمارة الملثمين قلد الأمور أعيان البلاد من الفقهاء...وزينوا لعلي أخذ بلاد الثغر من يد عماد الدولة، فكاتبه في ذلك فرغب إليه عماد الدولة أن يجري معه على ما كان عليه سلفه مع سلفه،[11] ويترك حاجزا بينه وبين النصارى، فأبى...فكان ذلك سببا إلى أن استعان عماد الدولة بالنصارى وخرج من سرقسطة، فملكها الملثمون » [12].

يبدو من خلال المصادر الإسلامية السابقة أن عماد الدولة ارتمى في أحضان النصارى، معطيا في ذلك مثالا عن التخاذل والخيانة، إلا أن يوسف أشباخ المؤرخ الألماني يصفه بالشجاع ولكنه يعترف بأنه أقل ذكاء وفطنة من أبيه، ووصفه بأنه لم يقدر أن يوطد لنفسه نوعا من الاستقلال في تلك الفترة التي وصفها بالعصيبة إزاء جيرانه الأقوياء من النصارى.[13]

بعد استقرار المرابطين في سرقسطة تحت إمرة قائدهم محمد بن الحاج الذي كان يحيطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى المجاورين لها من الشرق والغرب، كان النصارى يتحينون الفرصة المناسبة للوثوب عليها [14]، ففي عام 504 هـ / 1111 م، خرج ألفونسو المحارب في جيش ضخم رفقة عماد الدولة ابن المستعين – المخلوع عن الحكم – وأصبح قريبا من سرقسطة محاولا مهاجمتها، إلا أن القوات المرابطية استطاعت صد الهجوم حيث كان في قيادة الجيش المرابطي كل من محمد بن الحاج والي سرقسطة ومحمد بن عائشة مما أدى بقوات النصارى إلى التقهقر والعودة إلى أدراجها.[15]

في سنة 505هـ / 1112 م خرج عماد الدولة بن هود من حصن روطة لمحاربة سرقسطة، حيث تصدى له ابن الحاج وأعاده إلى ذات الحصن وقد علق على ذلك ابن عذاري بقوله: « خرج عماد الدولة من مدينة روطة [16] برسم محاربة سرقسطة، وخرج إليه واليها محمد بن الحاج بعسكرها فحاربه ثم بعد منه » [17].

بحلول سنة 510 هـ / 1116 م قاد والي سرقسطة الجديد [18] الأمير أبو بكر بن تافلويت [19] حملة على حصن روطة، حيث انتصر على النصارى هناك وبالغ في النكاية [20]، وفي أوائل سنة 511 هـ / 1117 اضطر أمير المرابطين علي بن يوسف الجواز إلى الأندلس بنفسه [21]، بعد أن فقد كبار قادة المرابطين في الجهاد ضد النصارى، وقد أقبل أمير المسلمين على قرطبة وعين محمد بن عبد الله بن مزدلي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة ودعمه بالجند والمتطوعين [22]، وفي هذا الوقت بالذات كان ألفونسو المحارب قائد مملكة أراغون قد أقبل لحصار سرقسطة وأذاق أهلها بلاء شديدا، فلم يزل محمد بن مزدلي يدافع عن سرقسطة حتى أضطر ألفونسو المحارب إلى رفع الحصار عنها.[23]

وفي العام الموالي أي 511هـ/ 1117م [24] استغل ألفونسو المحارب الفرصة وجهز جيشا عظيما لغزو سرقسطة، فبلغ الخبر أمير المسلمين علي بن يوسف، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس بالمسير إلى ناحية تميم حيث كان واليا على شرق الأندلس، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة، وهكذا توافدت على تميم حشود عسكرية كبيرة [25] لمواجهة جيوش النصارى المكونة من الأراغونيين والقشتاليين والإفرنج [26]، وقد نشبت بين الطرفين المرابطي والنصراني معركة انهزم فيها الفونسو المحارب وفقد ما يربو عن العشرة آلاف نفر، واضطر إلى رفع الحصار عن لاردة، في هذا الوقت بالذات رجع تميم إلى مراكش حيث كانت الأمور مضطربة هناك ليستغل ملك أراغون ويستنفر قوى النصارى من جديد وعاودا المجيء في جيش ضخم [27]، وضرب

حصارا على مدينة سرقسطة الذي وصفه صاحب روض القرطاس بقوله: « فنزلوا معه بها (جيوش النصارى) وشرعوا في قتالها وصنعوا أبراجا من خشب تجري على بكارات وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا، ووقع طمعهم فيها، فاستمر الحصار عليها حتى فنيت الأقوات، وفني أكثر الناس جوعا »[28].

بعد طول هذا الحصار أرسل أهل سرقسطة إلى ملك أراغون ألفونسو المحارب يطلبون منه أن يتوقف عن القتال مدة من الزمن[29] « فان لم يأتهم من ينصرهم أخلوا البلاد وأسلموها له »[30]، وبعدها كتب قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله رسالة إلى الأمير تميم يستنصرونه فيها باسم الدين ويطلبونه فيها القدوم لإنقاذ سرقسطة من أيد النصارى[31]، ولكن الأمير تميم تقاعس عن نصرة إخوانه وتركهم يواجهون مصيرهم التعيس[32] ولما انعدمت أي مساعدات من تميم استسلمت مدينة سرقسطة وخرجوا عنها إلى مدينة مرسية وبلنسية[33]، وبعد دخول النصارى إليها لحقت جيوش المرابطين التي قدرها صاحب روض القرطاس بعشرة آلاف فارس لاستنقاذ المدينة ولكنهم وجدوها قد صارت نصرانية وعلق على ذلك صاحب روض القرطاس بقوله: « وبعد دخولها وتملك النصارى إياها وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين علي، لاستنقاذها، فوجدوها قد فرغ منها وملكها ونفذ حكم الله فيها »[34]، وقد وضعت شروط لاستسلام المدينة للنصارى[35]، وبذلك صارت مدينة سرقسطة تحت حكم مملكة أراغون بعد أن كانت تابعة لدولة المرابطين المسلمين.

هكذا سقطت سرقسطة قاعدة الإسلام الكبرى في شرق الأندلس في 512 هـ/1118 م وعجز المرابطون عن استردادها خاصة وأن المرابطين كانوا منشغلين بأمر الموحدين الذين شكلوا شوكة في حلقهم[36]، لقد قوي أمر النصارى في الأندلس بعد سقوط سرقسطة ففي عام 513 هـ / 1120 م استولى ألفونسو المحارب على طرسونة،

ثم سار إلى برجة الواقعة جنوب تطيلة واستولى عليها وافتتح عدة حصون أخرى من تلك البقاع ومنها " الاجون " و"مالن" و"مجايون".[37]

استولى ملك أراغون على قلعة أيوب وكان ذلك في نفس السنة(513هـ/1120م) والتي وصفها ابن أبي زرع بقوله: « التي ليس في بلاد الشرق أمنع منها »، ولما بلغت هذه الأخبار إلى علي بن يوسف جاز إلى الأندلس برسم الجهاد [38]، وفي نفس السنة بعث علي بن يوسف إلى رؤساء الأندلس وحثهم على إنجاد أخيه تميم، حيث اشتبك جيش المرابطين مع النصارى وانهزم المسلمون في معركة كتندة سنة 514 هـ/ 1121م.[39]

لما حل عام 519هـ/1125م كانت غزوة ألفونسو المحارب الكبرى التي اخترق فيها بلاد المسلمين مخربا ومدمرا ما قابله من قرى وحصون وعمران حتى وصل إلى بلاد الأندلس الجنوبية[40]، حيث التقى مع جيش المرابطين الذي كان قد أمر بتشكيله أمير المسلمين على بن يوسف وانهزم المسلمون[41]، وبعدها رجع ملك أراغون إلى بلاده دون أن يحقق شيئا يذكر، فهذه الانتصارات لا تعدوا أن تكون مجرد معارك، ضف إلى ذلك انهيار جيشه بمسيرته الطويلة ومعاناته من ظروف الشتاء القاسية، ولكن هذه الغزوة طويلة المدة التي خاضها ألفونسو المحارب، كشفت عن ضعف وسائل الدفاع الإسلامية وأثبتت قصور الأمير تميم في قيادة عسكر المرابطين، لذلك أفتى الفقيه ابن رشد بعزله كما تبين أن أسوار مدن الأندلس لم تعد قادرة على حماية مدن الإسلام من هجمات النصارى.[42]

2- وقعة القلاعة 523هـ / 1129 م :

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الأندلسية الفاشلة، عاود استئناف نشاطه العسكري بالهجوم على أراضي الثغور[43]، وكان المسلمون لا يزالون يسيطرون على المناطق الواقعة شرق سرقسطة وأهم قواعها لاردة وأفراغة ومكناسة والمناطق المحاذية

لنهر أبوة حتى مصبه عند ثغر طرطوشة، وقد ازدادت رغبة ألفونسو المحارب في الاستيلاء على ثغر طرطوشة لما له من أهمية[44]، لذلك جهز صاحب أراغون جيشا وأراد الاستيلاء على لاردة وأفراغة، فلما بلغ الخبر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف خشي أن يعيد النصارى كرتهم باختراقهم الأندلس بجيوشهم وتدمير كل الأمصار التي وجدوها في طريقهم.[45]

أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بتجهيز الجيش ، وقد علق على ذلك ابن القطان بقوله: « فسقط على الرعية سودانا يغزون في العساكر، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم، ففعلوا ومضت الحشود إلى مرسية »[46]، وقد كان قائد هذه القوة بدر بن ورقاء[47]، و توجهت الجيوش إلى مدينة مرسية تعزيزا لجيوش المرابطين هناك ، حيث اشتبكت قوات المرابطين بقيادة أبي محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني مع قوات الأراغونيين في قتال عنيف قرب موضع يعرف باسم القلعة أو القلاعة [48]في الأندلس وذلك في شهر رجب عام 523هـ/1129م.[49]

أسفرت الاشتباكات الأولى عن تغلب المرابطين وفقا لما جاء في الرسالة [50]التي أرسلها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأمير أبي محمد بن أبي بكر[51]، والتي أكدت على أن قوة المسلمين أكبر من النصارى، غير أن الأمور لم تلبث على ذلك طويلا إذ انتصر الأراغونيون وقد وصف ابن القطان هذه الهزيمة بقوله: « وانهزم المسلمون وتبعهم العدو، وذهب أكثر الرجالة قتلا وأسرا، وحاز العدو الأسلاب والأثاث والدواب وذهب من المسلمين ما يزيد على اثني عشر ألف بين قتيل وأسير بلغ ذلك علي بن يوسف فغاظه».[52]

لما علم أمير المرابطين علي بن يوسف بتلك الهزيمة كتب الرسالة المشار إليها أعلاه وفيها يلوم القائد المرابطي الأمير أبي محمد بن أبي بكر، وقد جاء فيها عبارات

اللوم والعتاب ومنها « توافقتم مع عدوكم وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعا، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعا، وأقوى دونه دفعا، فثبت وزللتم، وجد ونكلتم ... وكنتم في تلك الوقيعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد»[53]، وبعد هذا الانتصار تقدم ألفونسو المحارب نحو ثغر بلنسية[54]، فاضطر قاضي هذه المدينة إلى الاستنجاد بأمير المسلمين علي بن يوسف الذي رد عليه هو الآخر برسالة يذكره فيها بالهزيمة المخزية وأن سببها الأول والأخير هو تخاذل جنود المرابطين عن الذود عن بلاد الإسلام، إلا أنه يستدرك بطمأنته أهل بلنسية، وتأكيده لهم أنه لن يتركهم لحال سبيلهم، حيث كتب أمير المسلمين علي بن يوسف إلى سائر ولاته بالأندلس لإرسال القوات والتعجيل بها لأهل بلنسية [55]، ويبدو أن ألفونسو المحارب ملك أراغون قد اكتفى بالتخريب والنهب ولم يحاول مهاجمة بلنسية واحتلالها وكان بمقدوره ذلك.[56]

3 – وقعة افراغة 528 هـ/1134م:

بعد هزيمة المسلمين في وقعة القلاعة أو القلعة نشب صراع مسلح بين مملكة أراغون ومملكة قشتالة انتهى عام 524 هـ / 1130 م، وكان لا يزال ألفونسو المحارب يفكر في الاستيلاء على لاردة وأفراغة ومكناسة وفعلا تم له عام 527هـ/1133م الاستيلاء على مكناسة[57]، وقد استسلمت بعد مقاومة عنيفة [58]بعدها بدأ التفكير الجدي في الاستيلاء على مدينة افراغة.

فرض ألفونسو المحارب الحصار على مدينة أفراغة في رمضان 528 هـ /1134 م حيث يقول عن ذلك الحميري في الروض المعطار « وحاصرها العدو في جمع كثيف، وآلى زعيمهم ابن رذمير [59]على نفسه ألا يبرح حتى يأخذها عنوة وذلك سنة ثمان وعشرون وخمسمائة في رمضان منها»[60]، ويتفق صاحب نظم الجمان مع الحميري في السنة حيث يقول: « وفي هذه السنة (528 هـ / 1134 م) نازل ابن رذمير أفراغة »[61]، أما ابن الأثير فيجعل هذه المعركة في سنة 529هـ/1135 م[62]، وقد تشكلت

القوة الإسلامية على حساب رواية ابن الأثير من ألف فارس جاءت من قرطبة وخمسمائة فارس جاء بها يحي بن غانية، ومائتي فارس من لاردة، إضافة إلى القوات المرابطة في افراغة [63]، أما يوسف أشباخ فيقدر عدد المسلمين بعشرة آلاف فارس[64]، أما عن تعداد القوة النصرانية فيقدرها ابن الأثير باثني عشر ألف فارس.[65]

كان ألفونسو المحارب مصرا على افتتاح افراغة مهما كلفه الأمر وأقسم على ذلك[66]، وبعد وصول قوات المرابطين اشتبكت مع القوات النصرانية، وقد كان ألفونسو المحارب يستخف بقوات المسلمين حيث يقول ابن الأثير: « فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين، فقال لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون إليكم»[67]، وقد تصدى لهذه القوات النصرانية عبد الله بن عياض والي لاردة وأوقع بهم الهزيمة، وجاء ألفونسو المحارب بنفسه على رأس جيشه فأغار عليهم ابن غانية وابن عياض واشتد القتال بينهم، وكثر القتلى في صفوف النصارى، في هذا الوقت خرج أهل افراغة جميعهم ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم إلى خيام النصارى، فاشتغل الرجال بمن وجدوه من العساكر واشتغلت النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هناك إلى المدينة من قوت وآلات وسلاح وغير ذلك، ولا يزال الحال كذلك حتى لحقت قوة إسلامية أخرى بقيادة الزبير فكثر جنود الإسلام وانهزم النصارى. [68]

إلا أن يوسف أشباخ يورد رواية مغايرة للرواية الإسلامية السالفة الذكر، حيث يقول:« وعلى أثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة (افراغة) في معركتين وهزم المسلمون في المرتين ولجئوا إلى الفرار»[69]، ولكننا لم نعثر على هذه الحقائق في المصادر الإسلامية التي اعتمدنا عليها، ويضيف يوسف أشباخ حول المعركة أن المسلمين لجأوا إلى خديعة حينما ضعفت قواتهم فدبروا كمينا جذبوا إليه القوات الأراغونية على يد قافلة من المؤن، وهنالك أنقضت عليهم نخبة من المجاهدين

وهلكت منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين وأسقفين وحشم كبير من الجيش[70]، لكن جميع الروايات تتفق على أن الانتصار النهائي كان للمسلمين.

أما عن مصير ألفونسو المحارب فقد ذكر الحميري أنه فر إلى حصن على رأس جبل والمسلمون يتتبعونه ثم هرب ليلا متسللا[71]، أما ابن الأثير فيقول أن ألفونسو المحارب عاد إلى مدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعا بعد عشرين يوما[72]، أما ابن عذاري فيكتفي بذكر مقتله في ذات السنة دون ذكر التفاصيل[73]، ويورد لنا يوسف أشباخ أن وفاة ألفونسو المحارب كانت وراء معركة افرغة بقليل حيث يذكر أحد الروايات التي تفيد بمقتله في سرقسطة وهو ما ذهب إليه ابن الأثير، كما يطلعنا على رواية أخرى تؤكد أن ألفونسو المحارب لما رأى هزيمة جيشه حاول أن يلقي بنفسه إلى المعمعة ليموت، فتودد إليه أحد الرجال –ربما يكون أسقفا– أن ينقذ نفسه فغادر ميدان المعركة رفقة ستين من فرسانه ثم ما لبث أن عاود الرجوع إلى قلب المعركة فاجتذبه المسلمون إلى كمين وقتلوه وذلك في 07 سبتمبر 1134 م.[74]

وعلى أية حال فإن معركة افراغة كانت نصرا كبيرا للمسلمين[75]، وانهزم فيها الأراغونيون وقتل زعيمهم ألفونسو المحارب، وبذلك عادت بعض الهيبة للمرابطين في الأندلس ويتأسف الأستاذ عبد الله عنان على تخاذل المرابطين في استرداد سرقسطة في ذات العام حيث يرى بان المسلمين كان بإمكانهم استرداد سرقسطة في ظل ضعف النصارى وموت قائدهم وتشتت قواتهم.[76]

خاتمة

لم تكن دولة المرابطين لتدخرا جهدا في منازلة مملكة ارغون التي لم تكن سوى إحدى جبهات الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس، فقد بذل أمير المرابطين علي بن يوسف كثيرا من جهده في إذكاء جذوة الجهاد، وحاول فرملة الزحف النصراني على

الحواضر الأندلسية، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد، غير أن تعاظم ثورة الموحدين ضده في المغرب من جهة وتكالب قوى النصارى عليه من جهة أخرى جعل مهمة الملقاة على من جاء بعده تبدو صعبة، ورغم ذلك فقد شكل جهاد المرابطين لممالك النصارى في الأندلس صفحة مشرقة في التاريخ الإسلامي ضاربين بذلك أمثولةً في أن جند الإسلام أقوى واقدر على ردع قوى الكفر متى صح منهم العزم.

هوامش البحث:

[1] إحدى ممالك النصارى في شبه الجزيرة الأيبيرية وصفها الحميري بأنها بلاد غرسية بن شانجة وتشتمل على بلاد ومنازل وأعمال. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط 1، مكتبة لبنان، بيروت، 1957، ص 27.

[2] ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع (قسم المرابطين)، تحقيق: إحسان عباس، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 53؛ حمدي عبد المنعم: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الازاريطية، 1997، ص 182.

[3] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 53.

[4] حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1992، ص 24؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس– عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس–، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990، ص 74.

[5] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 55. وقد وصف لنا ابن عذاري في نفس الصفحة كيفية خلع صاحب سرقسطة بقوله: « وولي عماد الدولة أحمد بن أحمد المستعين بن المؤتمن بن أحمد المقتدر بن سليمان المستعين بالله بن هود الجذامي في غرة رجب من هذه السنة (503هـ/ 1110 م) وأخرجه أهل سرقسطة كما تقدم ذكره في يوم السبت العاشر من ذي القعدة ودخلها عامل علي بن يوسف».

[6] مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط 1، دار الرشاد الحديثة، الدر البيضاء، 1979، ص 99؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 74.

[7] المقصود بها الهدنة.

[8] وهذا دليل واضح على أن عماد الدولة صاحب سرقسطة استعطف أمير المسلمين علي بن يوسف ألا يخلعه من منصبه.

[9] مجهول: الحلل الموشية، ص 99.

[10] نفسه. وهو ما لا يدع مجالا للشك أن الرعية كانت ناقمةً على صاحب سرقسطة عماد الدولة لموالاته النصارى وارتمائه في أحضانهم، لذلك أقدم سكان سرقسطة على إدخال جيش المرابطين إلى مدينتهم، نكايةً في أميرهم وطلبا لحماية المرابطين.

[11] ويقصد أن تكون العلاقات طيبة كما كانت في عهد يوسف بن تاشفين مع صاحب سرقسطة المستعين بالله. وهو نفس ما أشار إليه صاحب الحلل الموشية. قارن: ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1995، ج 2، ص 438؛ مجهول: الحلل الموشية، ص 98.

[12] ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص 438.

[13] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ط 2، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1996، ج 1، ص 147.

[14] فايزة بنت عبد الله الحساني: تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها (316 هـ- 512هـ/928م-1118م)-دراسة سياسية وحضارية-، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/1430هـ/2008م-2009م، ص 115.

[15] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 55؛ فايزة الحساني: المرجع السابق، ص 115؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 88.

[16] كانت تابعة لمدينة سرقسطة في التقسيم الإداري الأندلسي، وتعرف باسم روطة نهر الحالون وتعرف بالأجنبية باسم (RUEDA DE JALON) وهي اليوم تابعة لمديرية وشقة HUEBCA

وقد سقطت في يد ألفونسو المحارب ملك أرغون عام 512هـ/1118م. ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج2، ص 246.

[17] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 56.

[18] استشهد والي سرقسطة محمد بن الحاج سنة 508هـ/1114م في إحدى حروبه مع النصارى. نفس المصدر، ج 4، ص 61.

[19] هو المشهور بابن تفلويت تزوج أخت علي بن يوسف، فولاه غرناطة ثم سرقسطة، وقد كان مثلا رائعا في الجود والشجاعة توفي سنة 510هـ/1116م. نفس المصدر، ج4، ص 61، هامش(2).

[20] فايزة الحساني: المرجع السابق، ص117.

[21] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص164؛ مجهول: الحلل الموشية، ص86

[22] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 162؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص 26.

[23] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 162. وقد وصف ذلك في نفس الصفحة بقوله: « وفي سنة إحدى عشر وخمسمائة ولي عبد الله بن مزدلي بلنسية وسرقسطة، فسار إليها من غرناطة فوجد ابن ردمير قد أذاق أهلها شرا، وكانت بينهما حروبا عظيمة، حتى هزمه وأخرجه عن البلاد، وأقام عبد الله بن مزدلي على سرقسطة عاما كاملا، فتوفي، فبقيت سرقسطة دون أمير».

[24] ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 162؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص 26.

[25] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 163؛ حمدي عبد المنعم: المرجع الساب ، ص187.

[26] قبل أن تتحد جيوش قشتالة وأراغون كان بينها صراع كبير وصل إلى حد الاقتتال فقد أعلن ملك أراغون الحرب على قشتالة واستولى على ولاية "ريويا" والتي كانت تابعة لمملكة نافارة، وبعدها سكنت الحرب بينهما لتتوحد مساعيهما في انتزاع سرقسطة من أيدي المسلمين. يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج 1، ص 163.

[27] وصفهم صاحب روض القرطاس بأنهم أمم كالنمل والجراد، وهو ما يعني أن جيوش النصارى كانت كبيرة. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 163. وقدرهم الحميري بنحو خمسين ألف فارس. الحميري: الروض المعطار، ص 317.

[28] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 163.

[29] ابن أبي زرع: المصدر السابق ص 163؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 95؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 188؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص 27.

[30] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 163.

[31] انظر نص الرسالة كاملة عند عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ص 538 – 541.

[32] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 96؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 188.

[33] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص163؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص96؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص 27.

[34] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 163.

[35] نقل لنا الأستاذ حمدي عبد المنعم شروط تسليم المدينة نقلا عن ابن الكردبوس: وهي أن يسلموا المدينة لابن ردمير، ومن أراد من المسلمين البقاء فعليه أداء الجزية، ومن أراد أن يرحل منها بما شاء من ممتلكاته فله ذلك وله الأمان التام حتى يصل إلى بلاد الإسلام، وأن كل أسير مسلم يفلت من أيدي النصارى ويصل إلى بلاد الإسلام، فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه. وبعد مدة آثر جميع المسلمين مغادرة المدينة ولم يتحملوا أن يعيشوا تحت راية الكفر وقد قدرهم ابن الكردبوس بخمسين ألف نسمة ما بين صغير وكبير ونساء وذكور، فلما ساروا من المدينة لحق بهم ابن ردمير بنفسه فطلب منهم أن يتخلوا عن ممتلكاتهم التي كانت كبيرة جدا حيث وصفها ابن الكردبوس بقوله:« فوقف عليهم وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم من القليل والكثير، فرأى أموالا لا تحصى كثرة، ولا كان راجيا أن يرى جزء منها دهره.» ولكنه استدرك نفسه وسمح لهم بالمغادرة ومعهم كل أملاكهم، ولم يأخذ منها غير القلة القليلة. حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص.ص 189– 190.

[36] حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص27؛حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، ط 2، دار الرشاد، القاهرة، 1997 ، ص 105؛

PHILIPPE CONRAD: histoire de la Reconquista, 2 édition, presses universitaires de france, paris, 1999.

[37] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 202؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 190.

[38] هناك تضارب في المعلومات بين ابن أبي زرع وصاحب الحلل الموشية حيث وصف ابن أبي زرع هذا الجواز بالثاني سنة 513 هـ/ 1120 م أما صاحب الحلل الموشية فيقول بأن الجواز الثاني كان سنة 503هـ/ 1109م. قارن: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 164؛ مجهول: الحلل الموشية، ص 85.

[39] عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 2، 736؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 103، حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، ص 106.

[40] عن تفاصيل هذه الغزوة راجع: ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 69؛ مجهول: الحلل الموشية، ص 91.

[41] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 72.

[42] حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص.ص 196 – 199.

[43] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 116.

[44] ضمانا لربط مملكته بالبحر المتوسط عن طريق هذا الثغر.

[45] ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 152؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 200.

[46] ابن القطان: المصدر السابق، ص 152.

[47] كان واليا على بلنسية سنة 519 هـ/1125م أيام الحملة الارغوانية التي شقت الأندلس نحو الجنوب. نفس المصدر، ص 152، هامش (3)؛ وقد أورده صاحب مفاخر البربر باسم يدر بن ورقاء مجهول: مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط 1، دار أبي رقراق، الرباط، 2005، ص 192.

[48] وهي المعروفة باسم وقعة قلييرية CULLERA حيث أنها قرية تقع على ساحل البحر المتوسط على مقربة من جريرة شقر.

[49] ابن القطان: المصدر السابق، ص. ص 152 – 153؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص118.

[50] تجد نص الرسالة عند حسين مؤنس: الثغر الاعلى، ص.ص 51 – 52.

[51] يعرف كذلك باسم ابن قنونة نسبة إلى أمه التي هي أخت علي بن يوسف.

[52] ابن القطان: المصدر السابق، ص 154.

[53] حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص 51.

[54] وأغار على مدينة غليرة وعنها يقول ابن القطان: « وأغارت النصارى على غليرة، واكتسحت ما وجدت، ورصد النصارى ... صاحب قرطبة في بعض مخارجه، فالتفوا به فنكب المسلمون وأصيب منهم جملة» ابن القطان: المصدر السابق، ص 154.

[55] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 120؛ حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 202.

[56] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 120.

[57] وهي قاعدة حصينة وتكمن أهميتها في أنها تقع عند ملتقى نهري سجري و ابرة.

[58] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 121.

[59] والمقصود به ألفونسو المحارب، أما المصادر العربية فتذكره باسم ابن ردمير على غرار ابن ابي زرع، أو ابن رذمير على غرار الحميري.

[60] الحميري : الروض المعطار، ص 48. ولكن وقع خطأ في السنة في كتاب صفة جزيرة الأندلس لذات المؤلف حيث يذكر أنها وقعت سنة 525هـ والراجح أنه خطأ مطبعي لأن محقق الكتاب أورد السنة بالأرقام. انظر: الحميري : صفة جزيرة الأندلس– منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار– ، تحقيقي: ليفي بروفنسال، ط 2، دار الجيل: بيروت، 1988، ص 24.

[61] ابن القطان: المصدر السابق، ص 235.

[62] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 9، ص287.

[63] نفسه. وقد كان ابن غانية هذا أميرا على مرسية وبلنسية من شرق الأندلس.

[64] يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج1، ص 173.

[65] ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 287.

[66] يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج 1، ص 173. وعلق على ذلك في نفس الصفحة بقوله: «ثم أمر الملك لكي يذكي حماسة الجيش أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقواميس ».

[67] ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 287.

[68] ابن القطان: المصدر السابق، ص 235؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 287؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 25؛ الحميري: الروض المعطار، ص 49 ؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 123.

[69] يوسف أشياخ: المرجع السابق، ج 1، ص 173. ويؤكد ذلك بقوله في نفس الصفحة أن أهل افراغة لما رأوا انهزام المسلمين فكروا في تسليم المدينة حيث يقول: «فخارت عزائم سكان المدينة وعولوا على التسليم بشروط يسيرة ولكن ألفونسو رفض كل عرض واعتزم أن يفتح المدينة بالسيف، فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس».

[70] يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج1، ص 173.

[71] وقد وصف ذلك الحميري في الروض بقوله:« وفر اللعين وسيوف المجاهدين تأخذ منه، وعزيمتهم لا تقلع عنه، إلى أن آوى إلى حصن خرب في رأس جبل شاهق مع الفل الذي بقي معه بعد الإمساء، وأحذق المسلمون تلك الليلة بذلك الحصن يرقبونه، ولما أيقن أنه سيصطلم إن أقام هناك تسلل في ظلمة الليل من ذلك الموضع واتخذ الليل حملا» الحميري: الروض المعطار، ص49.

[72] ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 287. وقد وصفه ابن الأثير في نفس الصفحة بقوله: «وكان أشد ملوك الفرنج بأسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين ... وأراح الله منه وكفى المسلمين شره ». ولكثرة حروبه مع المسلمين سمي بألفونسو المحارب (BATT ALLATTOR) حيث انتصر في جميع معاركه عدا افراغة. يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج1، ص 174.

[73] ابن عذاري: المصدر السابق، ج 4، ص 91.

[74] يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج 1، ص. ص 173 – 174.

[75] – ينقل لنا الحميري في الروض جملة من الأبيات للشاعر الأندلسي أبو جعفر بن وضاح يتغنى فيها بانتصار المسلمين وهذه بعضها:

عقرتم بسيوف الهند مصلتة كأنما شرقوا منها بغدران
هون عليك سوى قوم قتلتهم من يكسر النبع لم يعجز عن البان
أودى الصميم وعاقت عن بقيتهم مقادر أغمدت أسياف شجعان
وقفت والجيش عقد منك منتثر إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها كأن تصهالها ترجيع ألحان

الحميري: الروض المعطار، ص 49.

[76] عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 126.